الصعود

WWW.ATTAWEEL.COM

أسعد الديب محمد

النشاط العلمي في دولة نور الدين محمود زنكي (*)

٥٤١ ـ ٥٦٩هـ

الدكتور
عماد الدين خليل
الموصل ـ محافظة نينوى

(١)

شهدت دولة نورالدين محمود بن عماد الدين زنكي في بلاد الشام والجزيرة (٥٤١ ـ ٥٦٩هـ) نشاطا علميا واسع النطاق حيث بنيت المدارس ومؤسسات التعليم في كل مكان ، وتدفق العلماء والادباء على بلاد الشام من المشرق والمغرب ومنحت الضمانات المالية والاجتماعية لشيوخ العلم وللطلبة والدارسين ، وعقدت المجالس والندوات لمناقشة شتى المسائل والقضايا المتعلقة بفروع العلم والبحث المختلفة ، وقرب العلماء واستقدموا من اقطار المشرق والمغرب ، وفتحت امامهم السبل ، نفذوا الطبقة الاولى واحتلوا اعلى مصاف .

ان نور الدين محمود يعرف جيدا طبيعة العصر الذي قدر له ان يتولى احدى قياداته الخطيرة ويقف على ثغر من ثغوره المتقدمة بمواجهة خصم مذهبي كان قد تغلغل في الارض التي يقف عليها نور الدين وضرب جذوره هناك فيما يزيد على النصف قرن.. انه يعرف ان تحرير الارض وتوحيدها ليس عملا سياسيا وعسكريا فحسب ، بل انه اوسع من ذلك بكثير .. انه مواجهة حضارية بين امة وامة ، وانه بدون تأصيل الذات الحضارية للامة المقاتلة ، فان انتصاراتها على الخصم لن تكون سوى اعمالا جزئية موقوتة ، معرضة دوما للمد والجزر وللتغير والتبدل كما كان يحدث دائما .

وما يقتضيه (الموقف) التاريخي ليس هذا .. ليس مجرد انتصار خارجي في معركة او استرداد حصن ، وانما بناء امة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من ان تتفتت وتضيع .. وحينذاك سوف يتحول كل نصر عسكري او كسب سياسي الى انجاز بنيائي يزيد المجتمع المقاتل قوة واصالة وتماسكا ، لا مجرد تكديس شيئين لا يشده رباط .. تكديس قد يثبت للضربة والضربتين ، ولكنه في الثالثة او الرابعة ينهار لتذهب مع انهياره هدرا جهود السنين الطوال وعرقها ودماؤها .. .

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين محمود لم يكن ابدا ترفا فكريا ، ولا افرازا تقليديا لاجهزة الدولة .. لكنه (تصميم) هادف يسعى الى عملية التأصيل (الحضاري) من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق ، يرتبط به الفكر بالسلوك والعلم بالعمل ، وتزول حواجز الفصل والازدواج ، وتنمحي الثنائيات ، ويبرز الى حيز التاريخ الانسان المتوازن والجماعة المؤمنة .

× × ×

لقد كان نورالدين نفسه عالما وحاكما !! وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية .

كان نور الدين عارفا بمذهب ابي حنيفة ، ملتزما به ، من غير تعصب منه ولا تحيز ، فالمذاهب

(*) بعد مقتل عماد الدين زنكي ، مؤسس اتابكية الموصل ، في عام ٥٤١هـ انقسمت دولته الى امارتين حكم كلا منهما احد ابنائه ، فاما الموصل والجزيرة فقد تولاها سيف الدين غازي ، واما حلب وشمالي الشام فقد تولاها نور الدين محمود الذي تمكن خلال فترة حكمه من توحيد الشام ومصر وتوجيه ضربات ستراتيجية حاسمة ضد الصليبيين ، وجاء الناصر صلاح الدين من بعده فكي يواصل الطريق .

www.atiyabooks.com

عنده ـ كما اجمع المؤرخون ـ كلها سواء« والانصاف سجيته في كل شيء »[1] ...

سمع الحديث حتى حصل على الاجازة العلمية التي تتيح له ان يسمعه للاخرين .. ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة مهام عمله السياسي والعسكري ، محاولة منه في تعزيز مكانة (الدين) ونشرها بالحفظ والاداء والتحديث[2] الامر الذي يذكرنا بجهود الخليفة الاموي عمر بن عبدالعزيز في هذا المضمار الخطير ، كما الف كتابا في الجهاد[3] ، واوقف كتبا كثيرة في مدارسه ، وكان حسن الحفظ كثير المطالعة للكتب الفقهية ، متميزا بعقله المتين ، ورايه الثاقب الرزين[4] .

وكان الرجل لتعشقه العلم يسعى وهو في قمة السلطة « الى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم والاتباع لهم في حفظ حالهم »[5] وكان العلماء عنده في المنزلة الاولى والمحل العظيم[6] ، يحضرهم الى مجلسه « فيدينهم .. ويتواضع لهم ، واذا اقبل احدهم اليه يقوم له مذ يقع عينه عليه ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بجديته ، كانه اقرب الناس اليه ، تعظيما وتوقيرا واحتراما »[7] .

وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع انيها العلماء والفقهاء للبحث والنظر[8] ، وكانت مناظرته نشاطا جادا من اجل مجابهة المشاكل والتجارب المتجددة المتغيرة ، بالحلول المستمدة من شريعة الاسلام وفقهها الواسع الكبير .. ما دام الرجل يسعى الى اعادة صياغة الحياة ، في كافة مبادينها وعلى مدى ساحاتها ، بما ينسجم وعقيدة الاسلام ورؤيا لموقع الانسان في العالم .. ومن ثم فان ندوات كهذه هي اشبه بمجالس او (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحل مشكلة ما او استصدار تشريع او اقرار قانون . ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسع الذي عقده نور الدين مع حشد من العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا كافة المذاهب الفقهية من اجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة[9] . ويمكن ان نشير هنا ـ كذلك ـ الى رواية ابن الاثير التي يشبه فيها مجلسه بمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم « مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم .. ولا يذكر فيه الا العلم والدين واحوال الصالحين ، والمشورة في امر الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا .. »[10] ، والى روايته الاخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار عدد من الفقهاء واستفتائهم في اخذ ما يحل له من « الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين » « فاخذ ما افتوه » بحلة ، ولم يتعده الى غيره البتة »[11] ، فما يصدر عن ممثلي الشريعة الغراء يتوجب ان يكون ملزما لكل انسان سواء كان في القمة ام في القاعدة .. وقولهم هو القول الفصل لان نورالدين ، وقد عرفنا مدى صدقه مع ربه ومع نفسه ومع جماهير امته .

لقد بلغ العلماء والمشرعون في دولة نور الدين حدا جعل الامراء ، الذين انزلوا عن القمة ليحل هؤلاء محلهم ، يحسدونهم على مكانتهم « وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم واذا نقلوا عن انسان عيبا يقول : « من المعصوم ؟ وانما الكامل من تعد ذنوبه »[12] .

بلغني ـ يقول ابن الاثير ـ « ان بعض الاكابر من الامراء حسد قطب الدين النيسابوري ، الفقيه الشافعي ـ وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان اليه ـ فنال احدهم منه يوما عند نور الدين فقال له : يا هذا ، ان صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها، وهي العلم والدين؛ واما انت واصحابك ففيكم اضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ، وانا احتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، افلا احتمل سيئة هذا ـ ان صحت ـ مع وجود حسنته ؟ على انني والله لا اصدقك فيما تقول ، وان عدت ذكرته او غيره بسوء لاوذينك ! ! فكف عنه . »[13] .

---

(1) ابن الاثير : الباهر ص ١٦٥ ، النعيمي : الدارس ١\ ٦٠٩ .
(2) ابو شامة : الروضتين ١/٥٨٢ ـ ٥٨٣ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب ص ٥٦ ـ ٥٧ .
سبط : مرآة ٨\٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، ابن الاثير : الباهر ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .
(3) سبط : مرآة ٨\٢١٢ .
(4) نفسه ٨\٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، ابو شامة : الروضتين ١\١١ ـ ١٠ ـ ١١ ، ابن كثير : البداية ١٢\٢٧٨ .
(5) ابو شامة : الروضتين ١\٥٨٢ ـ ٥٨٣ .
(6) ابن واصل : بني ايوب ١\٢٨٢ .
(7) ابن الاثير : الباهر ص ١٧١ ـ ١٧٢ وانظر ابن الجوزي: المنتظم ١٠\٢٤٩ وابن كثير : البداية ١٢\٢٨١ .
(8) انظر : ابن واصل : بني ايوب ١\٢٨٢ وابن الاثير : الباهر ص ١٧١ ـ ١٧٢ .
(9) انظر ابو شامة : الروضتين ١\١١\٤١ ـ ٤٤ .
(10) الباهر ص ١٧٢ .
(11) نفسه ص ١٦٤ .
(12) ابن الاثير : الباهر ص ١٧١ ـ ١٧٢ .
(13) ابن الاثير : الباهر ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

ولم يكن الرجل يتعامل مع العلماء (بحساب الجملة) كما يقولون ، حيث يختلط الفقيه بالجاهل تحت ستار العلم ، ويضيع الجيد بالردىء . . وحيث يبرز احيانا من بين العلماء رجل او اثنان او اكثر ، فيمتطوا المكانة التي بلغوها ، ويختبأوا خلف الرداء الذي لبسوه لكي يزيفوا حقيقة ، او يلبسوا باطلا بحق ، او يشتروا بايات الله ثمنا قليلا . . ان الرجل برفض الكذب . الكذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع ، وهو ــ من الجهة الاخرى ــ يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة كدقة الموازين ، فهو كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه متحدثا عن نفسه (لست بالخب(١٤) ولا الخب يخدعني) . . ومن ثم يبدو ان ليس بمقدور اي رجل ان (يعبر) على بداهة نور الدين وتفحصه الذكي للرجال ، حتى لو تدثر بالف رداء علمي واختبأ خلف الف ستار . . ان الحادثة التي يرويها لنا شاهد عصره : العماد الاصفهاني تحمل دلالتها على علمية الرجل ورفضه للخرافة ، وفهمه العميق للرجال « في رجب ــ يقول العماد ــ فوض الي نور الدين (احدى مدارسه) وعول علي في التدريس والنظر في اوقافها ، وكان الفقيه فيها ابا البركات خضر بن شبل الدمشقي ؛ فلما توفي (سنة ٥٦٢هـ) خلف ولدين واستمرا فيها على رسم الوالد ، ثم خدعهما رجل مغربي ــ استهواهما ــ بعمل الكيمياء(١٥) ، ونهج بهما سبيل الاغواء فصاهراه وظاهراه فغاظ نور الدين هذا المعنى واحضرهما واستوفى عليهما انواع التوبيخ فلم يجد من احدهما لامره سمع المصيخ فقال لي : تسلم الموضوع ورتبني فيه مدرسا وناظرا »(١٦) .

(٢)

في مقابل هذا الانفتاح على العلماء الجادين ، وهذا التقريب لهم والتقرب اليهم ؛ وفي مقابل ذلك الترحيب بمعطيات العلم وثمار العقل ، كان نورالدين ــ كما يصفه كثير من المؤرخين ــ « قليل الابتهاج بالشعر »(١٧) ؛ لا عن نفور من الشعر ذاته وعدم توافق مع معطياته الوجدانية التي تهز العقول والقلوب ، وانما عن نفور من الشعراء انفسهم .

ونور الدين ــ كما عرفناه ــ يكره الكذب والتزوير ويرفض الظلم والتبذير . . . انه موقع الايمان الجاد الذي لا ايمان بدونه : كراهية الكذب ورفض الظلم ، والسعي الدائم ــ بالمقابل ــ من اجل استشراف قمم الحق والعدل . . ان نور الدين هنا يذكرنا بعمر بن عبدالعزيز . لا في كراهيته للتجربة الشعرية ؛ ولكن بتوجسه من ملق الشعراء وضعفهم ومزايداتهم ، ان ابن عساكر ، الشاهد المعاصر الاخر ، يبين لنا بكلمات حاسمة لماذا اقل ابتهاج نور الدين بالشعر : وهو لا يسميه شعرا ولكنه يسميه مدحا ، ولهذا دلالته الساخرة في هذا المجال . . انه قليل الابتهاج « لما علم من تزايد الشعراء ! ! وهي طريقة عمر بن عبدالعزيز »(١٨) .

ومن ثم فان نور الدين ــ كسلفه ــ لم يكن يشرع الابواب في وجوههم ، بل لم يكن يعطيهم ! ! وقد سئل يحيى بن محمد الوهراني في بغداد عن نور الدين ، فأجاب في احدى مقاماته « هو سهم للدولة سديد ، وركن للخلافة شديد . واسير زاهد ، وملك مجاهد . . . غير انه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل ، وبالمحل الجديب للشاعر الاديب . . (فليس) لشاعر عنده من نعمة تجزى »(١٩) .

وعبارة (غير انه . . .) التي ترد بعد عبارات المديح تلك توحي بان موقفه هذا لم يكن مرضيا عنه من الجميع . . فهناك دائما من يريد ان (يأخذ ! على حساب اي شيء ، في عصر كانت آذان هؤلاء قد اعتادت عبارة (اعطوه الف دينار . . .) او عبارة (سل ما شئت) ! ! .

ومن بين هؤلاء الشاعر اسامة بن منقذ الذي يمدحه ببيتين من الشعر يتضمنان غمزا مستورا لموقف نور الدين من عطاء الشعراء :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدت
له فكل على الخيرات منكمش
ايامه مثل شهر الصوم ظاهره
من المعاصي وفيها الجوع والعطش

لكن ابا شامة ، المؤرخ الدمشقي ، يتصدى بنفسه للرد على الرجلين : صاحب المقامة وصاحب القصيدة ، ولفضح الازدواجية التي يعانيها كثير من الشعراء ، ولبيان حقيقة الموقف العظيم فيقول « ما كان ــ نور الدين ــ يبذل اموال المسلمين الا في الجهاد وما يعود نفعه على العباد . وكان كما قيل

---

(١٤) الخب : الخادع .
(١٥) يوم كانت (الكيمياء) دجلا وشعوذة وسحر ومحاولة لاستخراج الذهب من التراب بمعونة الجن والشياطين !!
(١٦) البرق ص ١١٩ ــ ١٢٠ .
(١٧) ابو شامة : الروضتين ١/١/٥٨ ، ١/١/٥٨٢ ــ ٥٨٣ .
(١٨) نفسه ١/١/٥٨٤ .
(١٩) نفسه ١/١/٥٨٤ .

في حق عبدالله بن محيريز ـ وهو من سادات التابعين في الشام ـ انه كان جوادا حيث يحب الله ، وبخيلا حيث تحبون ! ! واما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به (! ! ! فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور الدين:

في كل عام للبرية ليلة
فيها تشب النار بالايقاد
لكن لنور الدين من دون الورى
ناران : نار قرى ونار جهاد ! ! ... الخ

وقد تقدم من شعر ابن منير وابن القيراني والعماد وغيرهم من مدح نور الدين بالكرم والجود ما قليل منه يرد قول الوهراني وابن منقذ ... وانما الشعراء واكثر الناس ـ كما قال الله تعالى في وصف قوم (فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون)[20] ، وما كل وقت ينفع العطاء »[21] .

ولم يكن أي من الرجلين ، عمرا ونور الدين ، يكره الشعر لذاته ، كاسلوب فني في التعبير .. لقد كانت تجربة عمر بن عبدالعزيز قد بلغت من الرقة والشفافية ما جعلها تبلغ وجدانية الشعر بل تتجاوزها الى امداء ابعد بكثير .. بل كان في صباه يقول الشعر ويلحنه ! ! ورجل كهذا لا يمكن بشكل من الاشكال ان يكون في حالة خصام مع الشعر .. اما نورالدين فان معاصريه انفسهم يحكون لنا كيف كان يطلب من بعضهم احيانا ان يسمعوه ، في المواقف والمناسبات ، شعرا ! ! .

يقول العماد : سألني نور الدين ان اعمل (مثنويات) شعرية في معنى الجهاد وعلى لسانه فقلت :

للغزو نشاطي واليه طربي
مالي في العيش غيره من ارب
بالجد وبالجهاد نجح الطلب
والراحة مستودعة في التعب

× × ×

لاراحة في العيش سوى ان اغزو
سيفيا طربا الى العلى يهتز
في ذل ذوي الكفر يكون العز
والقدرة في غير جهاد عجز

× × ×

اقسمت سوى الجهاد مالي ارب
والراحة في سواه عندي تعب
الا بالجد لا ينال الطلب
والعيش بلا جد جهاد لعب[22]

ويقول في موضع آخر : كنت راكبا مع نورالدين في اعقاب احدى جولاته الظافرة ضد الصليبيين عند طبرية فسألني كيف تصف ما جرى ؟ فمدحته بقصيدة مطلعها :

عقدت بنحرك راية الايمان
وبدت لعصرك آية الاحسان ... الخ[23]

ولكن ماهو اكثر دلالة من هذا اكله ان يشهد عصر نور الدين تالق عدد من كبار الشعراء ؛ كان يقف في قمتهم ابن القيسراني [24] ؛ والعماد الاصفهاني[25] ، وابن منير[26] ؛ وابن الدهان الموصلي[27] ..

اولئك الذين وجدوا في دولة نور الدين الارضية الصالحة لازدهار الشعر الذي طرق ابوابا

---

(٢٠) سورة التوبة ، آية ٥٨ .
(٢١) ابو شامة : الروضتين ١\٥٨٤ ـ ٥٨٥ .
(٢٢) ابو شامة : الروضتين ١\٥٢٨ .
(٢٣) نفسه ١\٥٢٨ ـ ٥٢٩ وانظر ١\٥٤٢ .
(٢٤) محمد بن نصر الله المكاوي ويقال له ابن الصفير . ولد بعكا سنة ٤٧٨هـ ونشأ بقيساوية الساحل فلذلك نسب اليها ، ولما استولى الصليبيون على الساحل انتقل الى حلب ومنها الى دمشق فاخذ الادب عن توفيق بن محمد (ت ٥١٦هـ) ، وكان القيسراني اديبا فاضلا ، شاعرا مترسلا ، بليغ النظر ، مليح المعاني ، وله اطلاع واسع في علم النجوم والاحكام والتاريخ ، توفي سنة ٥٤٧هـ (سبط : مرآة ٨\٢١٣ ـ ٢١٤ وانظر : الطباخ: تاريخ حلب ٤\٢٣٧ ـ ٢٣٩) .
(٢٥) المؤرخ المشهور .
(٢٦) احمد بن منير الشاعر الطرابلسي ، ولد سنة ٤٧٢هـ بناحية طرابلس وكان ابوه منير ينشد الاشعار ويتغنى بها في اسواق طرابلس ، ونشأ ابنه فحفظ القرآن وقرأ الادب والعربية واللغة وقدم الى دمشق فاقام بها ، وكان حينئذ خبيث اللسان كثير الفخر بشعره ويستعمل الالفاظ العامية فيه ، فلما كثر منه ذلك حبسه بوري بن طغتكين حاكم دمشق ، ثم هرب الى حلب ، وجاء مع نور الدين عندما حاصر دمشق ، ثم قفل عائد الى حلب ومات فيها سنة ٥٤٨هـ . وكان شاعرا مجيدا هجاءا ، معارضا لمحمد بن القيسراني الشاعر (سبط : مرآة ٨\٢١٧ ـ ٢١٨ وانظر الطباخ : تاريخ حلب ٤\٢٢١ ـ ٢٢٧) .
(٢٧) عبدالله بن اسعد المعروف بابن الدهان الموصلي ، فقيه فاضل وشاعر مبدع ، كان مدرسا بحمص . ذكره العماد في خريدته فاكثر الثناء عليه وعلى شعره (ابو شامة : الروضتين ١\١\٣٢٢) .

راسمه ، وخطا الى آفاق بعيدة المدى ما كان لهم ان يرحنوا اليها بقصائدهم المبدعة لو لا ان لقوا من الرجل اعجابا وتوافقا وانسجاما .. وليس لنا هنا ان نتحدث عن هؤلاء الشعراء وعن معطياتهم لئلا يخرج بنا ذلك عن الموضوع ، ولنا آن نحيل القارىء الى دواوينهم نفسها والى كتابي : «الخريدة للاصفهاني[٢٨] ، والدولتين لابي شامة ، ليرى بأم عينه كيف يكون الابداع[٢٩] .

(٣)

في الجهة الاخرى ، لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الادبي ، والعلاقة الودية ، والكلمة الطيبة . ولكنه تجاوز هذا ـ على اهميته ـ الى البذل والعطاء ، فكان يمنحهم بسخاء ، مقدرا ان هذه الفئة الممتازة يجب ان تظل عزيزة الجانب ، والا تلجئها الضرورات القاسية الى ان تنزل درجات الى اسفل منحنتي راسها وتلوي فكرها ، او تتملق وتداهن وتغش وتكذب طلبا للاجر وسد الحاجة ، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظيمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال . وطبيعة حلوة الثمار التي تنضجها شجرتهم الخضراء ..

ان امة تريد من علمائها ان يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة ، عليها الا تبخل عليهم بما يسد حاجاتهم الضرورية ويفيض عليها لكي لا تشدهم الى اسفل ، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة الى فوق ، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة ، ولا تتدلى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمهم .. هناك حيث وازن الرسول صلى الله عليه وسلم مدادهم بدم الشهداء وحيث قدرهم الله حق قدرهم عندما اشار الى خشيتهم ـ بالعلم ـ اياه .. سبحانه .

كان نور الدين اذا اعطى احدا منهم الشيء الكثير يقول « هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الاعداء ، ولهم في بيت المال حق اضعاف ما اعطيهم ، فاذا ما رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا»[٣٠] . . وقال له اصحابه يوما « ان لك في البلاد ادرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الان لكان امثل ! ! فغضب من هذا وقال : والله اني لارجو النصر الا باولئك . . كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عني وانا نائم في فراشي بسهام لا تخطىء ، واصرفها الى من لا يقاتل عني الا اذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب ، ثم ان لهؤلاء القوم نصيب في بيت المال اصرفه اليهم . فكيف اعطيه غيرهم ؟ »[٣١] .

وقد وسع نور الدين نطاق الخدمات العلمية والدارسين على السواء ، ومكن العلماء ، بما خصصه لهم من اعطيات ، من ان (يتفرغوا) لمهامهم العلمية وسار في هذا الميدان على الطريق الذي كان سلفه عمر بن عبدالعزيز قد قطع فيه خطوات مديدة .

بنى في كثير من بلاده مكاتب للايتام لتعليمهم الخط والقراءة ، واجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة ، وبنى ـ ايضا ـ مساجد كثيرة ووقف عليها من يقرىء بها القرآن وهذا فعل يقول ابن الاثير ـ لم يسبق اليه[٣٢] ، ووقف وقوفا اخرى على معلمي الخط والقرآن وساكني الحرمين[٣٣] .

ويحدثنا ابن جبير ، الذي زار دمشق بعد سنوات قلائل من وفاة نور الدين عن جوانب عديدة من نشاطات الدولة في سبيل توسيع خدماتها في حقل التعليم . ولا ريب ان مشاهداته هذه تنسحب على عصر نور الدين ، واضع الاسس الاولى للسياسة التعليمية التي اعتمدها خلفه الناصر صلاح الدين .. ففي الجامع الاموي شاهد ابن جبير حلقات عديدة لتدريس الطلبة ، وكان مدرسوهم يتقاضون على مهمتهم اعطيات ومخصصات كبيرة . وفي الجانب الغربي من الجامع ، اقام نور الدين للمالكية زاوية للتدريس يجتمع اليها طلبة المغرب (المغاربة) ولهم اجراء معلوم من اوقاف كثيرة اوقفها نور الدين على تلك الزاوية بلغت الخمسمائة دينار في العام الواحد . وقد خصص لكل سارية من سواري الجامع وقف معلوم يأخذ منه المدرس الذي يستند اليها وهو يجتمع بحلقته للمذاكرة والتدريس .. ونمة وقف كبير للايتام من الصبيان يتسلم منه معلمهم ما يسد حاجته وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم ويكسوتهم « وهذا من اغرب ما يحدث به من مفاخر المدرسين ، وورد في شرط الواقف ان يحمل في كل هذه البلاد »[٣٤] .

وما من مشهد من شاهد دمشق الا وله اوقاف معينة من بساتين او اراضي او عمارات « حتى كادت

---

(٢٨) قسم شعراء الشام ، جزء ١ـ٢ ، تحقيق شكري فيصل
(٢٩) وانظر كذلك : بدوي : الحياة العقلية .
(٣٠) ابن كثير : البداية ٢٨١/١٢ ابن الاثير : الباهر ص١٧٢
(٣١) ابن الاثير : الباهر ص ١١٨ ، الكامل ٢٩٦\١١ ، ابن العديم : زبدة ٢١٤\٢ ، ابن خلكان : وفيات ١٨٧\٥ .
(٣٢) الباهر ص ١٧٢ ، ابن كثير : البداية ٢٧٨\١٢ .
(٣٣) ابو شامة : الروضتين ١٠١\١ ، ابن كثير : البداية ٢٧٨\١٢ .
(٣٤) رحلة ابن جبير ص ٢٤٥ ، ٢٥٧ .

الاوقاف تستغرق جمع ما فيه » ؛ وما أن يتم بناء مدرسة او مسجد او رباط حتى يعين لها سلطان اوقافا تقوم بها وبساكنيها والمقيمين فيها « وهذه ايضا من المفاخر المخلدة »(٣٥) .

وفي المدرسة الحلاوية بحلب ، التي يصفها ابن شداد بانها « من اعظم المدارس صيتا واكثرها طلبة واغزرها جامكية »(٣٦) ؛ كان نور الدين يقدم في السابع والعشرين من كل رمضان طعاما يجمع عليه المدرسين وورد في شرط الواقف ان يحمل في كل شهر رمضان ثلاثة الاف درهم لكبير المدرسين يصنع بها للفقهاء طعاما . وكان المدرسون يتسلمون مخصصات اخرى تمكنه من شراء الملابس والدواء والفاكهة ، هذا فضلا عما كان يقدم لهم في المناسبات من طعام ونقود(٣٧) .

وتأسست المراة بالرجل فراحت تنفق هي الاخرى الاموال الواسعة في بناء المدارس والربط والمساجد وتعين لها من اموالها الاوقاف ؛ بينما راح الامراء يتسابقون في هذا الطريق ؛ كل يبني ويعمر ويقف الاوقاف(٣٨) وليس ثمة غرابة في هذا اذا كانت اوقاف نورالدين الشخصية وحده تدر في الشهر الواحد ما يقارب العشرة آلاف دينار(٣٩) ؛ « ليس فيه ملك غير صحيح شرعا ، ظاهرا وباطنا ، فانه وقف ما انتقل اليه وورث ثمنه ؛ او ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه »(٤٠) اما ما اوقفه من اموال الدولة في المنشور الذي اصدره عام ٥٥٢هـ فحسب فقد قدر ثمنه بمائتي الف دينار وريعه السنوي بثلاثين الف دينار ، كان قد خصص قسم كبير منه على مدارس المذاهب الاربع وائمتها ومدرسيها وفقهائها ، وعلى تعليم الايتام وسكنى الغرباء من طلبة العلم(٤١) . « ولو اشتغلت ـ يقول العماد ـ باحصاء وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب ولم ابلغ الى امد »(٤٢) .

ويختتم ابن جبير حديثه عن هذا الجانب المهم في دمشق فيقول « ومرافق الغرباء بهذه البلدة اكثر من ان يأخذ والاحصاء ؛ ولا سيما لحفاظ كتاب الله والمنتمين لطلب (العلم) فالشان بهذه لهم عجيب جدا وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ؛ لكن الاحتفال بهذه البلدة اكثر والاتساع اوجد . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الامور المعينات كثيرة ؛ فاولها فراغ البال من امر المعيشة(٤٣) وهو اكبر الاعوان واهمها »(٤٤) .

(٤)

من اجل ذلك شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطا لم تشهد له مثيلا من قبل الا لماما . وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من اطراف الارض ؛ وقصدوا الرجل « من البلاد الشاسعة »(٤٥) حتى ان بلاد الشام كانت كما يصفها ابو شامة ، « خالية من العلم واهله ، وفي زمانه صارت مقر للعلماء والفقهاء والصوفية »(٤٦) .

وكانت وجهة (الهجرة العلمية) لصالح دولة نور الدين ، حيث غدت حلب اولا ودمشق فيما بعد ، هدف الشيوخ والعلماء والدارسين . فالدولة التي تهيء الارضية الاكثر صلاحية للعطاء العلمي ؛ وتمنح المال الاكثر للبحث والدراسة والتفرغ ؛ وتنشيء المؤسسات اللازمة لابداع العلماء والباحثين ؛ هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان . ولقد ادرك نور الدين اهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة ، ويستقدمهم اليه ويبالغ في اكرامهم والاحسان اليهم(٤٧) .

استقدم ـ على سبيل المثال ـ الفقيه الامام برهان الدين ابا الحسن علي بن الحسن البلخي الحنفي ؛ من دمشق ، حال استكمال بناء المدرسة ، الملاوية في حلب ، لغرض التدريس فيها . وكان قد تفقه فيما وراء النهر ؛ وبغداد ؛ والحجاز ؛ ثم قدم دمشق عام ٥١٩هـ وجلس للوعظ ، وكان يتميز بصدق كلماته فلقيت قبولا حسنا في قلوب الناس

---

(٣٥) نفسه ص ٢٤٨ .
(٣٦) اي مخصصات .
(٣٧) الاعلاق الخطيرة ، قسم حلب ١١٠ ـ ١١١ .
(٣٨) ابن جبير : رحلة ص ٢٤٨ .
(٣٩) اعتمادا على رواية ابن الاثير التي يقول فيها نقلا عن احد العارفين باعمال الشام « ان وقوف نور الدين في وقتنا هذا ـ سنة ٦٠٨هـ ـ كل شهر تسعة الاف دينار » الباهر ص ١٧٢ .
(٤٠) ابن الاثير : الباهر ص ١٧٢ .
(٤١) ابو شامة : الروضتين ١\١\٣٨ ـ ٤١ وانظر ابن كثير: البداية ١٢\٢٦٣ والعماد : البرق ص ٩٨ .
(٤٢) البرق ص ١٤٤ .
(٤٣) انظر : ملامح الانقلاب في خلافة عمر بن عبدالعزيز لصاحب البحث ، فصل (التربية والتثقيف) ، الدار العلمية ـ بيروت ـ ١٩٧٠ .
(٤٤) رحلة ابن جبير ص ٢٥٨ .
(٤٥) ابن الاثير : الباهر ص ١٧١ ـ ١٧٢ .
(٤٦) الروضتين ١\١\٣٤ .
(٤٧) ابن العديم : زبدة ٢\٢٩٢ ـ ٢٩٤ ، ابن واصل : بني ايوب ١\ ٢٨٣ .

وكان حسن الاعتقاد زاهدا في الدنيا ، وقفت عليه الاوقاف الكثيرة ، وكثرت الاعطيات فلم يلتفت اليها(٤٨) ، وقد قام البلخي اثر توليه الحلاوية ، باستدعاء الفقيه برهان ابا العباس احمد السلفي ـ من دمشق ايضا ـ ليكون نائبا عنه فيها ، فاعتذر عن القدوم فسير اليه برهان الدين كتابا ثانيا يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب ، فقدم الرجل ولم يزل نائبا عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته حيث حزن عليه برهان الدين حزنا شديدا . ولم يزل ـ الاخير ـ مدرسا هناك الى ان غادر حلب الى دمشق ، بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الدايه نائب حلب ، لكن ما يلبث ان يتوفى عام ٥٤٨هـ . وحل محله في التدريس عبدالرحمن بن محمود بن محمد الغزنوي حتى وفاته سنة ٥٦٤هـ ثم تعاقب عليها المدرسون القادمون من جهات شتى ، وكان من بينهم الامام رضا الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط) ، وكان في لسانه لكنه غير عربية ، فكتب نورالدين الى عالي بن ابراهيم الحنفي الغزنوي البلخي ، وكان في الموصل ، يطلب منه الوصول الى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة . واتفق ان ابا بكر بن مسعود الكاساني ـ الملقب علاءالدين ـ احد امراء كاسان في اقليم فرغانة من بلاد المشرق ، سير رسولا من سلاجقة الاناضول الى نور الدين فعرض عليه المقام بحلب والتدريس في المدرسة الحلاوية فاجابه الامير الى ذلك ووعده بالعودة الى حلب بعد تسليم جواب رسالته ، وقفل عائدا بعد اداء مهمته تلك ، فاتفق قدومه مع قدوم عالي الغزنوي من الموصل ، فما كان من نور الدين ـ من اجل الافادة من كفاءة الرجلين ـ الا ان امر بنقل الفقيه الحسين بن محمد بن اسعد المنعوت بالمنجم من مدرسة المدادين بحلب الى دمشق وعين عالي الغزنوي مكانه حيث ظل هناك حتى وفاته عام ٥٨١هـ او ٥٨٢هـ ، بينما آثر علاء الدين على التدريس في الحلاوية وظل هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام ٥٨٧هـ ، اي بعد ثمانية عشر عاما من وفاة نور الدين . وقد وصفه ابن شداد بانه « كان من ذوي التحصيل والتصانيف البديعة في احكام الشريعة والكتب التي سار في الافاق ذكرها »(٤٩) ، تفقه في بلاد المشرق على محمد بن احمد السمرقندي وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوجه شيخه هذا بابنته فاطمة ، الفقيهة العالمة ، وقد برع علاء الدين في علمي الاصول والفروع وصنف كتاب (البدائع) في شرح (التحفة) التي الفها شيخه(٥٠) وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى تفقهت على ابيها وحفظت مصنفه (التحفة) وكانت تنقل المذهب نقلا جيدا . وكان زوجها ربما يسهم بالفتوى فترده الى الصواب وتعرفه وجهة الخطأ فيرجع الى قولها . وكانت تمارس الافتاء وكان زوجها يحترمها ويكرمها ، وكانت الفتوى تخرج بخطها وخط ابيها وزوجها ! ! وهي التي سنت تقديم طعام الافطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب . . واستمر ذلك الى اليوم(٥١) .

وعندما استكمل المدرسة العصرونية في حلب عام ٥٥٠هـ استدعى لها نور الدين من احدى نواحي سنجار ـ غربي الموصل ـ الشيخ الامام شرف الدين بن ابي عصرون الذي كان ـ بحق ـ من اعيان فقهاء عصره ، واراد نور الدين الافادة من كفاءة الرجل الى المدى الاقصى فبنى له مدارس عدة في منبج وحماه وحمص وبعلبك ودمشق وفوضه ان يولي التدريس فيها من يشاء . ولم يزل ابن ابي عصرون يتولى امر مدرسته في حلب ادارة وتدريسا الى ان غادر حلب الى دمشق سنة ٥٧٠هـ(٥٢) .

وفي عام ٥٤٤ تم بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي ، واستدعي للتدريس فيها الفقيه المشهور قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب (الهادي) في الفقه(٥٣) . وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ومرو ، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ وقرأ القرآن والادب على والده ، والتقى بابي نصر القشيري ودرس بالمدرسة النظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني ، ثم سافر الى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائل ، فلقي هناك قبولا حسنا ، وغادر الى دمشق عام ٥٤٠هـ فدرس في مدارسها ووعظ في مساجدها فاقبل الناس عليه ، ومن هناك استدعي الى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة ، وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير(٥٤) . ووصفه العماد الاصفهاني بانه « فقيه عصره ونسيج

---

(٤٨) سبط : مرآة ٨\٢٩١ ـ ٣٢٠ .

(٤٩) الاعلاق الخطيرة ، قسم حلب ص ١١٠ ـ ١١٢ ، ١١٤ ـ ١١٥ ، ابن العديم : زبدة ٢\٢٩٣ ـ ٢٩٥ .

(٥٠) الطباخ : تاريخ حلب ٤\٣٠٥ ـ ٣٠٨ .

(٥١) نفسه ٤\٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٥٢) ابن شداد : الاعلاق ، قسم حلب ص ٩٨ ـ ٩٩ ، ابن العديم : زبدة ٢\٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

(٥٣) ابن العديم : زبدة ٢\٢٩٣ ـ ٢٩٤ وانظر مخطوطة كنوز الذهب ، ورقة ٦٥ظ ، عن المصدر السابق ، هامش ٤، ٢\٢٩٤ .

(٥٤) ابن شداد : الاعلاق ، قسم حلب ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

وحده »[٥٥]. وقد أرسله نور الدين ثانية الى دمشق فدرس في زاوية الشافعية بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الاموي ، واجتمعت طلبة العلم عليه . ومن اجل الافادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية يتولى الرجل التدريس فيها ، وقد شرع في البناء فعلا ، لكن الاجل ادركه قبل استكمال عمارتها[٥٦] ، وتوفي النيسابوري بعده بحوالي عشر سنين سنة ٥٧٨هـ .

وعندما اكمل الامير جمال الدين شاذ بخت ، الخادم الهندي ، نائب نور الدين في حلب ، بناء المدرسة المعروفة باسمه (الشاذ بختية) استدعى من سنجار نجم الدين مسلم بن سلامة ليوليه تدريسها[٥٧] .

وهناك سعيد بن سهل ابو المظفر المعروف بالفلكي النيسابوري المتوفي سنة ٥٦٠هـ ، والذي درس الحديث واقام في خوارزم وزيرا لاميرها ، ورحل الى بغداد مرارا وحدث بها عند جماعة من الشيوخ ثم سافر الى دمشق في طريقه لزيارة القدس فقدم في ايام نور الدين الذي اكرم وفادته ، ولما طلب النيسابوري العودة الى بلاده لم يسمح له نور الدين وامسك به وانزله الخانقاه السميساطية وجعله شيخها فاقام فيها حتى وفاته . وقد روى عنه المحدث الشهير ابو القاسم بن عساكر[٥٨] .

ويذكر المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف ان نور الدين « كاتبه مرارا »[٥٩] ويبدو ان الرجل لم يتيح له السفر الى الشام تلبية لرغبة نور الدين بينما اتيح للكثير بن غيره من العلماء . ونحن نستطيع بمجرد القاء نظرة على اسمائهم ان نتعرف على الاقاليم التي جاؤوا منها او البلدان التي غادروها الى دولة نور الدين .

وغير اولئك الذين استقدمتهم الدول كثيرون ممن جذبتهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين تدفقوا على حواضرها ، وملاءوها بنشاطهم العلمي والادبي ، مؤسساتها التعليمية ، واداراتها كذلك ، حتى صارت بلاد الشام في عصره ـ كما يقول ابو شامة ـ « مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية »[٦٠] .

(٥٥) البرق ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .
(٥٦) نفسه ابو شامة : الروضتين ١/١٤٤ ـ ٥٤٥ ، سبط : مرآة ٨/٢٩٤ .
(٥٧) ابن شداد : الاعلاق ، قسم حلب ص ١١٢ .
(٥٨) التميمي : الدارس ٢/١٥٢ .
(٥٩) المنتظم ١٠/٢٩ .
(٦٠) الروضتين ١/١/٢٤ .

وفي قمة هؤلاء يقف ولا ريب ، الاديب المؤرخ الشاعر العماد الاصفهاني الذي قدم الى دمشق عام ٥٦٢هـ حيث عرفه كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة بنور الدين محمود فاعتمده الاخير في عديد من المهام الادارية والسياسية والانشائية ، فضلا عن الافادة من قدراته العلمية والتدريسية حيث ولي المدرسة النورية التي سميت بعدئذ بالمدرسة العمادية نسبة اليه . وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتنوعة الخصبة في حقول التاريخ والادب والشعر والتي تم انجاز الكثير منها في عصر نور الدين نفسه : الخريدة ، البرق الشامي ، تاريخ دول آل سلجوق ، زبدة البصر ، الفيح القسي ، ثم معطياته الشعرية التي لا تقل جهدا وابداعا عن شعر اي من معاصريه الكبار كابن القيسراني وابن منير[٦١] .

وغير العماد تتردد امامنا اسماء كثيرة ، اخرى في شتى حقول المعرفة : الحسن بن ابي الحسن سافي مولى الارموي البغدادي ، ملك النحاة كما يسميه سبط ابن الجوزي ، ولد ببغداد سنة ٤٨٩هـ وقرأ النحو واصول الفقة على عدد من الاساتذة ثم دخل الشام واستوطن دمشق وله ديوان شعر جيد ومدائح في وصف النبي صلى الله عليه وسلم . كان يضم من الذهب يده على المائة والمائتين ويمسي وهو صفر اليدين . وقد عاش في ظل نور الدين الى ان مات وكان يكتب اليه[٦٢] .

وابو الفتح بنجه بن ابي الحسن الانسري الفقيه .. كان معيدا بالنظامية .. سافر الى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة افاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة ابي شامة في كتاب (الروضتين)[٦٣] .

وابو عثمان المنتجب بن ابي محمد البحتري الواسطي الواعظ .. ورد اربل ووعظ بها ، وكان له قبول عظيم لدى الناس .. سافر الى نور الدين في الشام طلب للجهاد ، وانفق له الاخير جملة من المال ، لم يقبلها وردها عليه[٦٤] .

ومحمد بن ابي القاسم البلخي .. امير من ائمة فقهاء بلخ فيما وراء النهر ، قدم دمشق عام ٥٥٢هـ ووعظ في جامعها عدة ايام والناس

(٦١) لمزيد من التفاصيل عن حياة العماد وانتاجه انظر مقدمة كتاب (سنا البرق الشامي) الذي حققه وقدم له رمضان ششن ، وانظر كذلك : التميمي : الدارس ١/٤٠٨ . ٤١١ .
(٦٢) سبط : مرآة ٨/٢٩٥ ـ ٢٩٧ .
(٦٣) ابو شامة : الروضتين ١/١/٢٢ .
(٦٤) ابو شامة : الروضتين ١/١/٢٨ .

يستحسنون وعظه ويستظرفون فنه وسلاطة لسانه وسرعة جوابه وحدة خاطره وصفاء حسه[٦٥] .

وعماد الدين ابو بكر النوقاني الشافعي الفقيه . . كان من اكابر علماء الاسلام ؛ من اصحاب محمد بن يحيى النيسابوري الشافعي رئيس الشافعية في اصفهان في عصره . وقد النوقاني الى الشام عام ٥٦٦هـ وهي السنة التي افتتح فيها المسجد الجامع في الموصل فسأله نور الدين ان يكون مدرسا فيه وكتب له منشورا بذلك[٦٦] .

والشريف السيد بهاء الدين ابو الحسن الهادي بن المهدي بن محمد الحسيني الموسوي . . كان فصيح اللسان بالعربية والفارسية ؛ مكين المحل عند نور الدين ، ناله من الحزن لفقده والتأسف عليه ما تقضيه مكانته عنده[٦٧] .

وشيخ الشيوخ عماد الدين ابو الفتح محمد ابن علي بن حمويه . . وفد الى الشام عام ٥٦٣هـ . . كان كبير الشأن في ميدان التصوف ؛ لم يكن له فيه يومذاك مساو ؛ فاقبل عليه نور الدين ورغبة في المقام بالشام ، واحسن اليه ؛ وامر باصدار منشور بعين الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام[٦٨] .

وابن عساكر ثقة الدين ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الشافعي الحافظ . . من اصحاب الحديث . . لقيه العماد بدمشق وسمع عليه من (تاريخ دمشق) الذي صنفه وذكر السمعاني انه رفيقه . وكان كثير العلم غزير الفضل حافظا متقنا ثقة دينا خيرا ؛ جمع بين معرفة المتون والاسانيد ورحل في طلب الحديث الى بغداد وخراسان ثم عاد الى دمشق . . وتوفي بها (سنة ٥٧١هـ) . وكان اول من تولى مشيخة دار الحديث التي انشأها نور الدين[٦٩] .

وعلي بن سليمان الاندلسي القرطبي . . الذي غادر الاندلس سنة ٥٢٠هـ ورحل الى بغداد وخراسان وتفقه على الامام محمد بن يحيى صاحب الغزالي ؛ وجماعة اخرين ؛ كما روى عنه عدد من العلماء المشهورين ، قدم الى دمشق والتقى بابن عساكر وزامله هناك ، وحدث بالصحيحين . ندب للتدريس في حماه ثم انتقل الى حلب ودرس بها المذهب بمدرسة ابن العجمي ؛ وكان ثبتا صلب في السنة . . توفي في حلب اواخر سنة ٥٤٤هـ[٧٠] .

ومحمد بن علي المظيمي الحلبي المؤرخ . . كانت له عناية بالتاريخ وتاليفه وكتب عدة مؤلفات وصفها ياقوت بانها مختلة كثيرة الخطأ . . وكان يعلم الصبيان في حلب . . مارس كتابة الشعر وسافر الى دمشق مرارا[٧١] . وقد افاد ابن العديم في كتابة (زبدة الحلب) ؛ كما هو معروف ؛ من تاريخ العظيمي الموحد كبير .

ومجد الدين طاهر بن نصر الله بن جهبل . كان عالما زاهدا ؛ فاضلا في الفقه والحساب والفرائض سمع الحديث على اكثر من رجل ؛ حدث وصنف لنور الدين كتابا في فضل الجهاد . درس في حلب بالمدرسة النورية وكان من كبار الفقهاء الشافعية . . توفي سنة ٥٩٦هـ[٧٢] .

والوجيه اسعد بن المنجا بن بركات بن المؤمل ، القاضي التنوخي ، المصري الاصل ، الفقيه الحنبلي . . ولد سنة ٥١٩هـ ورحل الى بغداد وتفقه بها ، وبرع في المذهب ؛ وسمع جماعة من الشيوخ . . وفي دمشق سمع على جماعة اخرى . . ولي قضاء حران في آخر دولة نور الدين ؛ وكان من ابرز الشيوخ الذين تفقه عليهم الشيخ عبدالقادر دوست الحسني مؤسس الطريقة القادرية (٩١ ـ ٥٦١هـ) وعبدالوهاب ابن الشيبي ابي الفرج الشيرازي . . كما روى عنه عدد من الشيوخ ابرزهم ابن قدامة المقدسي المعروف بالشيخ الموفق . وقد كان لابن المنجا في ذريته عدد من العلماء . وقد توفي سنة ٦٠٦هـ . ومن تصانيفه : (الكفاية في شرح الهداية) في بضع عشر مجلدا و (الخلاصة في الفقه) و (العمدة في الفقه)[٧٣] .

وفخر الدين رضوان بن محمد بن علي بن رستم الخراساني الساعاتي . . ولد ونشأ في دمشق ، وكان ابوه من خراسان ، انتقل الى الشام واقام بدمشق الى ان توفي ، وهو الذي عمل الساعات بباب الجامع الاموي ووضعها ايام نور الدين ، وكان له منه المنح الكثيرة والراتب الدائم لملازمته الاشراف على تشغيل الساعات وصيانتها . ولما توفي خلف ولدين احدهما بهاء الدين ابو الحسن علي ، احد المشاهير في ميدان

---

(٦٥) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .
(٦٦) العماد : البرق ص ٩٨ ، ابو شامة : الروضتين ١\ ٤٨٠ .
(٦٧) ابن القلانسي : دمشق ص ٣٢٢ ـ ٣٢٤ .
(٦٨) العماد : البرق ص ١٢٥ ، ابو شامة : الروضتين ١\ ٥٤٥ ـ ٥٤٦ .
(٦٩) انظر : العماد : الجزيرة ، قسم الشام ١\ ٢٧٤ ـ ٢٧٦ والنعيمي : الدارس ١\ ١٠٠ ـ ١٠١ .
(٧٠) الطباخ : تاريخ حلب ٤\ ٢٣٠ .
(٧١) الطباخ : تاريخ حلب ٤\ ٢٤٨ .
(٧٢) نفسه ٤\ ٢١٢ ـ ٢١٦ .
(٧٣) النعيمي : الدارس ٢\ ١١٤ ـ ١١٥ .

الشعر ، وثانيهما فخرالدين رضوان ، هذا ، الذي برع في الطب والادب(٧٤) .

وهذا ينقلنا الى ميدان الطب والمشتغلين فيه: حيث نلتقي بحشد كبير نبغ في الشام او قدم اليها من اقطار المشرق والمغرب .. الامر الذي يدلنا على ان نورالدين لم يجنح ، في تبنيه للحركة الثقافية ، باتجاه العلوم الشرعية وحدها ، وحتى الانسانية بفروعها المختلفة ، بل حاول ان يوجد الارضية الصالحة لنمو كافة النشاطات العلمية بشقيها الانساني والعلمي ، النظري والتطبيقي على السواء.. وانه في موقفه هذا انما يصدر عن رؤيته الاسلامية التي ترى (العلم) بابعاده المختلفة وسيلة لخدمة الحياة وترقيها ، واداة للكشف عن السنن والنواميس التي تدخل في تركيب الكون والطبيعة والانسان ، وصولا الى ايمان اشد عمقا وادراكا بخالق السنن والنواميس .. واحرى العلوم المحضة والتطبيقية والطب من بينها ، ان تجد ارضيتها الصالحة في دولة نور الدين مؤسس (البيمارستان) الشهير .. ومن ثم نلتقي بهذا الحشد الكبير من الاطباء ، هذه بعض نماذجها ..

المهذب ابو الحسن علي بن عيسى النقاش .. من اهل بغداد .. سافر الى الشام وشاع صيته هناك ولا سيما في علم الطب .. انفق عليه نور الدين واقطعه ضيعة وملكة اخرى تقديرا لفضله وتثمينا لعلمه ، واعتمده طبيبا في البيمارستان الكبير .. وما من طبيب من بلاد الشام الا يدعي انه تلميذه .. وقد بلغ من التقدم عند نور الدين ان اعتمده — كذلك — للسفارة للخليفة العباسي في بغداد ، ولكتابة الرسائل في ديوان الانشاء .. وقد كان لابن النقاش مجلس عام للمشتغلين في الطب(٧٥) .

ابو الفضل اسماعيل بن وقار الطبيب .. غادر دمشق الى بغداد ودرس هناك على علمائها وقفل عائدا الى دمشق ليعمل في خدمة نورالدين واصبح لا يفارقه سفرا او حضر .. وكان يملك من الخبرة والذكاء ما جعله يتقدم في صنعته ويحقق نجاحا مشهودا(٧٦) .

محمد بن عبيدالله بن المظفر الباهلي افضل الدولة ابو المجد .. الذي عد من الحكماء المشهورين .. كان طبيبا حاذقا ، له يد طولى في الهندسة والنجوم والموسيقى .. وله في سائر الالات المطربة يد حاذقة. وعمل ارغنا وبالغ في اتقانه .. قرا الطب على والده وغيره من الاطباء ، ولمع نجمه في دولة نورالدين ، وما لبث ان اوكل اليه امر الادارة الطبية في المارستان المشهور الذي انشاه في دمشق ، فاشرف هناك على علاج المرضى وافاد من مجموع الكتب الطبية التي اوقفها نور الدين في المارستان المذكور ، وكان يجلس اليه هناك جماعة من الاطباء يستمتعون اليه حينا وينصتون الى قراءة التلاميذ في الكتب الطبية حينا اخر ، ثم تبدا بعدها المناقشات والمباحث في مختلف المسائل الطبية ، فلا يزال الرجل معهم بين مناقشة ودراسة وقراءة مدة ثلاث ساعات كل يوم ، يغادر بعدها الى داره .. وقد توفي الباهلي بعد نور الدين بسنة واحدة(٧٧) .

رضي الدين الرحبي ، ابو الحجاج يوسف بن حيدره .. من الاكابر في صناعة الطب المشهورين من اهلها لدى الجميع كان كبير النفس عالي الهمة كثير التحقيق حسن السيرة ، محبا للخير واهله ، شديد الاجتهاد في مداواة المرضى .. كان والده من بلدة الرحبة ومن المشتغلين ايضا بصناعة الطب وكان مولد ابنه هذا في جزيرة ابن عمر حيث نشا ثم انتقل الى نصيبين والرحبة من مدن الجزيرة الفراتية فاقام هناك عدة سنين، ثم سافر الى بغداد ومصر وغيرهما، واشتغل في ميدان الطب وبرع فيه وكان وصوله مع ابيه الى دمشق سنة (٥٥٥هـ) حيث اقام سنين عديدة وتوفي والده هناك فبقي رضي الدين ملازما للدكان لمعالجة المرضى ونسخ بها كتبا كثيرة ودرس على مهذب الدين ابن النقاش ولازمه ، فقدمه الاخير ونوه بذكره . وعندما دخل الناصر صلاح الدين دمشق ، بعد وفاة نور الدين اعتمده في القلعة واليمارستان طيلة حكمة ... وقد اشتغل عليه بصناعة الطب خلف كثير ونبغ منهم غير قليل سرعان ما غدوا من المشايخ المذكورين في ميدان الطب وتتلمذ عليهم عدد من الدارسين ... وليس ببن جمهور اطباء الشام الا من قرا على الرحبي او على احد تلاميذه . وكان من جملة من قرا عليه ، اول امره ، الشيخ ، مهذب الدين عبدالرحيم بن علي .. وقد توفي رضي الدين سنة (٦٣١هـ) بعد ان عاش نحو المائة سنة وخلف ولدين اكبرهما شرف الدين ابو الحسن علي والاخير جمال الدين عثمان .. وقد

---

(٧٤) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ص ٦٦١ — ٦٦٢ .

(٧٥) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ص ٦٢٥ — ٦٢٧ ، العماد : البرق ص ١٤٢ .

(٧٦) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ص ٦٢٥ ، ابن اللاذقي : دمشق ص ٢٥٧ الطباخ : تاريخ حلب ١٤ ٢٤٧ .

(٧٧) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ص ٦٢٨ .

سلكا طريق ابيهما فدرسا الطب وبرعا فيه ، وعملا في المارستان الذي انشأه نور الدين في دمشق(٧٨) .

ابو الفضل مؤيد الدين محمد بن عبدالكريم المهندس .... ولد ونشأ في دمشق وكان يعرف بالمهندس لجودة معرفته بالهندسة وشهرته بها قبل ان يتحلى بمعرفة صناعة الطب ، وكان في اول امره نجارا ونحاتا، يتكسب من النجارة وله يد طولى فيها والناس كثيرا ما يرغبون الى اعماله . واكثر ابواب البيمارستان الكبير الذي انشأه نور الدين من صنع يديه .. وسعى الى تعلم اقليدس ليزداد في صناعة النجارة جودة ويطلع على دقائقها ويتصرف في اعمالهم .. فكان لا يمضي يوم الا وقد حفظ منه شيئا وحل بعض مسائله ، بعد فراغه من العمل ، وما لبث ان حل الكتاب بأسره وفهمه فهما جيدا وتمكن منه ثم نظر ايضا في كتاب (المجسطي) وشرع في قراءته وحله فانصرف لكليته الى صناعة الهندسة وعرف بها ، فضلا عن اشتغاله بصناعة النجوم وعمل الزيجات ،وكان قد ورد الى دمشق يوم ذاك الشرف الطوسي ، وكان فاضلا في الهندسة والعلوم الرياضية ليس في زمانه مثله ، فاجتمع به وقرأ عليه واخذ عنه شيئا كثيرا من معارف ، وقرأ ايضا صناعة الطب على ابي المجد محمد بن ابي الحكم ، ولازمه حق الملازمة ، ونسخ بخطه كتبا كثيرة في حقل الطب . وابو الفضل هذا هو الذي اصلح ساعات الجامع بدمشق وكانت له على مراعاتها وصيانتها اجرة دائمة ، فضلا عن اجرته التي كان يتقاضاها عن عمله الطبي في البيمارستان . وقد بقي سنين كثيرة يمارس الطب هناك حتى وفاته . وكان قد اشتغل ايضا بالحديث والادب والنحو ، ونظم قطعا جيدة من الشعر وتوفي سنة (٥٩٩هـ) وله من الكتب (رسالة في معرفة رمز التقويم)(مقالة في رؤية الهلال)(اختقار كتاب الاغاني الكبير للاصفهاني) (كتاب في الحروب والسياسة) (كتاب في الادوية المفردة على ترتيب حروف الابجد)(٧٩) .

موفق الدين عبدالعزيز بن ابي محمد السلمي .. عرف بشدة شفقته على المرضى وخصوصا على من كان منهم ضعيف الحال ، يفتقدهم ويعالجهم ويوصل اليهم النفقة وما يحتاجونه من الادوية والاغذية . وكان كثير الدين طلق الوجه محبوبا من الجميع . وكان في اول امره فقيها في المدرسة الامينية بدمشق واشتغل بعد ذلك على الياس ابن المطران في صناعة الطب واتقن معرفتها وصار من المتميزين من اربابها والمشايخ الذين يقتدى بهم فيها . وكان له مجلس عام للمشتغلين عليه في الطب في البيمارستان الكبير . ثم خدم بعد ذلك الملك العادل الايوبي ؛ وكانت له عنده منزلة كبيرة ؛ ولم يزل على ذلك حتى وفاته في دمشق عام (٦٠٤هـ)(٨٠) .

مهذب الدين ابن الحاجب : كان طبيبا مشهورا متقنا للطب والعلوم الرياضية وبخاصة الهندسة ، معتنيا بالادب والنحو .. ولد في دمشق ونشأ بها واشتغل في صناعة الطب على مهذب الدين بن النقاش ولازمه فترة من الزمن . رحل في طلب العلم الى الموصل واربل وعاد الى دمشق ؛ وكان قبل امتهانه في ميدان الطب ؛ احد المشرفين على صيانة وتشغيل ساعات الجامع الاموي في دمشق . ثم ما لبث ان لمع نجمه في ميدان الطب وصار من جملة رجالاته وعمل في بيمارستان نورالدين الكبير(٨١) .

× × ×

(٧٨) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ص ٦٧٢ ـ ٦٧٦ ، ٦٨٢ .
(٧٩) نفسه ص ٦٦٩ ـ ٦٧١ .

(٨٠) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ص ٦٧١ .
(٨١) نفسه ص ٦٥٩ . وانظر بالتفصيل عن الاطباء الذين تواجدوا في دمشق او تقاطروا اليها في عصر نور الدين او قريب منه ، مدفوعين بنشاطها الواسع في ميدان الطب ، وبوجود عدد كبير من الاطباء البارزين فيها والفراء مؤسستها الشهيرة :البيمارستان النوري الكبير، انظر الاسماء التالية التي وردها بن ابي اصيبعة في اماكن متفرقة من كتابه واين يدلنا بعضها على الجهات الثانية التي قدم منها هؤلاء الاطباء : ابو جعفر عمر بن علي بن البدغ المغربي (ص ٦٢٨ ـ ٦٣٠) ، حكيم الزمان عبدالمنعم الجلياني الاندلسي (ص ٦٣٠ ـ ٦٣٥) ، عفيف بن سكره اليهودي (ص ٦٣٨) ، ابو زكريا يحي الياسي الاندلسي (ص ٦٣٧) ، سكره اليهودي الحلبي ص ٦٣٧ ـ ٦٣٨ ، موفق الدين بن المطران ص ٦٥١ ـ ٦٥٩ ، برهان الدين الشريف الكحال ص ٦٦٠ ، ابو منصور النصراني ص ٦٦١ ، ابو النجم بن بي غالب النصراني ص٦٦١، ابو فرج النصراني ص٦٦١، كمال الدين الحمصي ص ٦٨٢ ـ ٦٨٢ ، موفق الدين عبداللطيف البغدادي صاحب كتاب الافادة والاعتبار ص ٦٨٢ ـ ٦٩٦ ، ابو الحجاج يوسف الاسرائيلي ص ٦٩٦ ـ ٦٩٧ ، اوحد الدين عمران الاسرائيلي ص ٦٩٧ ، مهذب الدين يوسف بن ابي سعيد ص ٧٢١ ـ ٧٢٣ ، مهذب الدين عبدالرحيم بن علي ص ٧٢٨ ـ ٧٢٦ ، شمس الدين محمد الكحلي المغربي ص ٧٥٥ .

وليس ثمة مجال هنا لاستعراض كافة العلماء الذين تألقوا في دولة نور الدين والتعريف بهم ، لئلا يخرج بنا هذا عن وحدة الموضوع ... انما هي اشارات وشواهد فحسب على تقدم الحركة العلمية وعلى نجاح سياسة نور الدين في انضاج ثمار الفكر واستقطاب زراعها بالبذل والاحترام والتقدير[٨٢] .

(٨٢) يمكن ان نشير هنا مجرد اشارة الى عدد آخر من الاسماء يستطيع القارىء أن يتعرف عليها بالرجوع الى كتب التراجم التي تعنى بهذه الفترة ، والى قائمة المصادر التي اعتمدت في هذا البحث : ابو البيان الزاهد المعروف بابن الحوراني ت ٥٥١هـ (انظر سبط : مرآة ٨\٢٢٧ ـ ٢٢٨) ، عبدالكريم بن عبدالله بن الفضل التنوخي المصري ت ٥٥٦هـ (سبط ٨\٢٣٩ ،) يوسف بن كلي ابو الحجاج الحارثي الشافعي ت ٥٥٦هـ (سبط ٨\٢٤٠) حسان بن تميم بن نصر الدمشقي المعروف بالصوفي ت ٥٦٠هـ (سبط ٨\٢٥٣) ، عبدالواحد بن ابراهيم المعروف بابن قرة الحلبي ت ٥٦٠هـ (سبط ٨\٢٥٣) ، ابراهيم بن احمد بن ابراهيم ت ٥٦١هـ (سبط ٨\٢٦٢) ، عبدالله بن الحسين الانصاري المعروف بابن رواحه ت ٥٦١هـ (سبط ٨\٢٦٢) ، عبدالرحمن بن الحسين ابو طالب الحلبي المعروف بابن العجمي ت ٥٦١هـ (سبط ٨/٢٦٣ ـ ٢٦٤) ، عبدالكريم بن محمد ابو الفضائل الانصاري ت ٥٦١هـ (سبط ٨\٢٦٦ ـ ٢٦٧) ، الخضر بن شبل ابو البركات المعروف بابن عبد ت ٥٦٢هـ (سبط ٨\٢٧٠ ـ ٢٧١) . هبة الله الحسن الدمشقي ، اخو الحافظ بن عساكر ، ت ٥٦٢هـ سبط ٨\٢٧٢ ـ ٢٧٤ هبة الله بن محفوظ ت ٥٦٣هـ (سبط ٨\٢٧٤) ، يوسف بن عبدالله بن البندار الدمشقي ت ٥٦٣هـ (سبط ٨\٢٧٤) ، علي بن عبدالله بن ابي جرادة العقيلي ت ٥٤٦هـ (الطباخ : تاريخ حلب ٤\٢٢٠ ـ ٢٣١ ، محمد بن عبدالصمد الطرسوسي ت ٥٩هـ (الطباخ ٤\٢٢٩) ، محمد بن علي بن حميده ت ٥٥٠هـ (الطباخ ٤\٢٤٢) ، الحسن بن علي بن العديم ت ٥٥١هـ (الطباخ ٤\٢٤٤) ، فتيان ابو السخاء الحاتك النحوي ت ٥٦٠هـ (الطباخ ٤\٢٤٩) الحسن بن محمد المعروف بالنجم ت في العقد السابع ظنا (الطباخ ٤\٢٦٤ ـ ٢٦٥) محمد بن احمد السمرقندي ت في عقد السبعين ظنا (الطباخ ٤\٢٦٥) ، هاشم بن احمد الاسدي ت ٥٧٧هـ (الطباخ ٤\٢٦٧ ـ ٢٦٨) ، اسامة بن منقذ الكناني ، المؤرخ الاديب المعروف ت ٥٨٤هـ (الطباخ ٤\٢٧٦ ـ ٢٧٨) ، الشريف حمزة بن زهرة الاسحاقي الحسيني ت ٥٨٥هـ (الطباخ ٤\٢٨٥ ـ ٢٨٦) ، الامير الفقيه عيس الهكاري ت ٥٨٥هـ (الطباخ ٤\٢٨٩ ـ ٢٩٠) ، محمد بن علي المازندراني الشيمي ت ٥٨٨هـ (الطباخ ٤\٣٠٨ ـ ٣٠٩) الشيخ شعيب الاندلسي ت ٥٩٦هـ (الطباخ ٤\٣٠٦) ، ... وغير هؤلاء ممن وردت اسماء بعضهم في صفحات هذا البحث ، ومن الشعراء والادباء الذين يمكن ان يتعرف القارىء عليهم في كتاب العماد الاصفهاني الشهير (الخريدة) ..

ومن خلال المدرسة ، كمؤسسة تعليمية ، انطلق نورالدين في تحقيق برامجه الواسعة ومطامحه التي لم يوقفها الا الموت .. لقد اراد ان تنتشر المدارس في كل مكان من انحاء دولته الشاسعة ، مترامية الاطراف .. انها المراكز التي تنقل حشود الناس من ظلام الامية والجهل الى نور المعرفة واليقين .. وان الرجل ليعرف جيدا انه بالجهل والامية لن تتحقق امته بالايمان ، ولن تتمكن من تحقيق ما اسميناه بتأصيل الذات الحضارية بمواجهة الغزو الخارجي المتثقب والتحريف الداخلي المدمر ، والعلماء الذين استقدمهم اوجاءوه من كل مكان ، ما كان لهم ان يعملوا ارتجالا او بنشطوا في الفراغ ونحن نعرف مدى الروح التنظيمية التي يملكها رجل كنور الدين .. فلا بد من تواجد قدر كاف من المؤسسات التعليمية للافادة من كفاءة هؤلاء الرجال ، ولنشر نور العلم والمعرفة وفق نظام دقيق وبرنامج مرسوم .

وهكذا ، فمن خلال الرغبة الجادة في تنظيم عملية التعلم لتحقيق الاصالة الحضارية في مجابهة الاسلام للغزو الخارجي والتحريف الداخلي ، نيستطيع ان نعثر على مفتاح ذلك النشاط المدرسي الذي تبناه السلاجقه من قبل واعقبهم نور الدين وكل الذين ساروا على خطاه ، وبخاصة خلفه الناصر صلاح الدين . فاصبح هذا النشاط (سمة) من ابرز سمات العصر : عصر التوحيد والمقاومة والجهاد الذي اريد له ، منذ اول لحظة ، ان يكون حركة مسلحة مبطنة بنور البرهان وقوة الكلمة ..

ومن ثم نجد الرجل ينشط ، منذ لحظة تسلمه الحكم وحتى وفاته ، لاقامة اكبر قدر ممكن من معاهد العلم ، مدارس ومكاتب ودور حديث وربطا[٨٣] وانفاق المبالغ الطائلة في هذا السبيل ، ووقف الوقوف السخية لضمان استمرار هذه المؤسسات على اداء مهماتها وشهدت مدن دولته وحواضرها ، وبخاصة حلب ودمشق ، جهدا مستمرا لبناء المدارس ابتدا ، او توسيع واصلاح ما كان قد بني قبلا .. ولم يقف الرجل وحده في هذا

(٨٣) انظر : العماد : البرق ص ٥٦ ـ ١٤٤ ، ابو شامة : الروضتين ١\٢٤١ ، ابن الاثير : الباهر ص ١٧٠\١٧٢ ، ابن خلكان : وفيات ٥/١٨٥ ، ابن العديم : زبدة ٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٥ ، ابن واصل : بني ايوب ١\٢٨٢ ، ٢٨٤ وانظر بالتفصيل
Elisseeff. Nur-Ad-din pp. 751-764.

المضمار بل وقف من ورائه جل رجالات دولته وكثير من نسائها ايضا .. واصبح تقليدا شائعا ان يسعى هذا الرجل او تلك المراة الى التقرب الى الله وتخليد الذكرى بهذه المثابة : بناء مدرسة . كان يعدو لاريب عملا من اخلص اعمال الايمان .

« وقد كان سبيل الناس الى العلم قبل ذلك هو التفرغ له وملازمة الشيوخ ، فكان لايستطيع ذلك الامن كانت له مواهب حقيقة ظاهرة يشعر معها ان هذه الدراسة ستجعل منه شيئا ، او من كانت لديه موارد ماليه كافية تغنيه عن طلب العيش وتمكنه من التفرغ للدرس ، فكان طالب العلم على هذا لو ناهز الارستقراطية الذهنية او المالية ولهذا فقد كان الناس اما ان يكونوا علماء او جهلاء ، اما من نسميهم نحن بالمتعلمين فلم يكن لهم وجود تقريبا . فلما انتشرت المدارس كثروا حتى اصبحوا يكونون جزءا هاما من الطبقة الوسطى بل الجزء الاقوى منها ، وكان لهذا كله اثر في رفع المستوى الاجتماعي العام »[٨٤] .

في حلب ـ على سبيل المثال ـ جدد نور الدين احدى الكنائس التي كان المسلمون قد استولوا عليها بسبب تحدبات الصليبيين المعروفه عام ٥١٨هـ. وصيرها مسجدا ومدرسة للحنفية عرفت بالحلاوية، وجدد فيها مساكن يؤدي اليها الفقهاء ، وايوانا . وكان بدء العمارة سنة ٥٤٤هـ ، وقد جلب لها من (افامية) الفريبه من حلب مذبحا من الرخام الشفاف الذي اذا وضع تحته ضوء شف عما وراءه ، ووضعه فيها[٨٥] . كما حول دارا كانت لابي الحسن علي وزير بني مرداس مشيرها ـ بعد انتقالها اليه بالوجه الشرعي ـ مدرسة للشافعية ـ وجعل فيها مساكن للفقهاء ، وذلك في سنة ٥٥٠هـ[٨٦] . وبنى مدرسة اخرى عام ٥٤٤هـ هي المدرسة النفريه النورية الشافعية[٨٧] . كما جدد مسجد الفضائري وجعله مدرسة وعين له مدرسا على المذهب الشافعي ووقف عليه وقفا[٨٨] . ووقف في جامع حلب الكبير المسمى بالجامع الاعظم ، زاويتين لتدريس مذهبي مالك واحمد وزاوية ثالثة لتدريس الحديث ، وانما اغفل المذهبين الاخرين : الحنفي والشافعي لانهما كانا يدرسان في الجامع المذكور قبل نور الدين[٨٩] .

وقام بعض رجالاته في حلب ببناء عدد من المدارس اشهرها ولاريب المدرسة الشاذنجتية . التي انشاها جمال الدين شاذنجت ، الخادم الهندي عتيق نور الدين وخصصها لتدريس المذهب الحنفي[٩٠] . كما انشا الرجل ذاته مدرسة اخرى بنفس الاسم شمالي حلب[٩١] . وانشا اسد الدين شيركوه مدرسة باسمه خصصت لتدريس المذهب الشافعي[٩٢] . وقام مجد الدين ابن الداية ببناء دار للحديث ومدرسيتين حملتا اسمه (المجدية) ، احداهما داخل حلب والاخرى ظاهرها[٩٣] . وبنى طومان ابن ملاعب بن عبدالله الازحاري ، صاحب الرقة ، واحد امراء نور الدين الكبار ، مدرسة للحنفية عرفت باسمه[٩٤] . وثمة امير اخر من العائلة الايوبية هو حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين ابن اخت صلاح الدين انشا مدرسة باسم (الحدادية)[٩٥] . وقامت زوجة نور الدين عصمت خاتون ـ ببناء دار للحديث الحقتها بالخانقاه التي بنتها في حلب[٩٦] .

وفي دمشق انشا نور الدين عددا من المدارس: اشهرها المدرسة النورية (الصغرى) للشافعية عام (٥٦٣هـ[٩٧] . ومدرسة جامع القلعة [٩٨] . والمدرسة العمادية التي اشتهرت باسم مدرسها العماد (الاصفهاني)[٩٩] . والمدرسة الصلاحية بالقرب من البجارستان (النوري) وقد نسبت

---

(٨٤) حسين مؤنس : نور الدين ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .
(٨٥) ابن شداد : الاعلاق (قسم حلب) ص ١١٠ ـ ١١١ ، ابن النديم : زبدة ٢\٢٩٣ ، وهو يشير الى ان عملية البناء بدات عام ٥٤٢هـ وليس الذي يليه .
(٨٦) ابن شداد : الاعلاق (قسم حلب) . ص ٩٨ ـ ٩٩، ابن العديم : زبدة ٢\٢٩٣ ـ ٢٩٤ ابن واصل : بني ايوب ١\٢٨٢ .
(٨٧) ابن شداد : حلب ص ١٠٠ ، ابن النديم : زبدة هامش ٤ ، ٢\٢٩٤ عن مخطوطة باسم (كنز الذهب) . ورقة ٦٥ .
(٨٨) ابن شداد : حلب ص ٤٤ ، ابن العديم : زبدة ٢\٢٩٤
(٨٩) ابن شداد : حلب ص ١٢١ ـ ١٢٢ ، الطباخ : تاريخ حلب ٢\٨٢ .
(٩٠) ابن شداد : حلب ص ١١٢ ، ابن العديم : زبدة ٢\٩١
(٩١) الطباخ : تاريخ حلب ٤\١١٩ .
(٩٢) نفسه ٤\٢٥٩ .
(٩٣) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٢٠ ، ١٢٣ .
(٩٤) النعيمي : الدارس ١\٥٤٢ ـ ٥٤٣ .
(٩٥) ابن شداد : حلب ص ١١٤ ـ ١١٥ .
(٩٦) نفسه ص ١٢٢ ، وعن مدارس حلب عموما في عصر نور الدين انظر : (الملحق الثالث)
Elisseeff : Nur - Ad - din, pp. 915-918
(٩٧) ابن شداد : الاعلاق (قسم دمشق) ش ٢٠٣ ، النعيمي : الدارس ١\٦٤٨ .
(٩٨) ابن شداد : دمشق ص ٢١٨ .
(٩٩) النعيمي : الدارس ١\١٨٣ .

خطا الى صلاح الدين(١٠٠). ومدرسة الكلاسة شمالي الجامع الاموي(١٠١) . كما بنى دارا للحديث هي الاولى من نوعها في دمشق ؛ او عليها دقوما كثيرة(١٠٢) . وفي عام ٥٦٨هـ شرع نور الدين بانشاء مدرسة كبيرة (مركزية) للشافعية ؛ لكنه توفي قبل اتمامها ؛ فاتمها ـ بعده ـ الملك العادل شقيق الناصر صلاح الدين سميت بالمدرسة العادلية او (النورية الكبرى)(١٠٣) . تميزا لها عن النورية الصغرى . وقد قام ولده الملك الصالح اسماعيل بنقل رفاته اليها حيث دفن هناك(١٠٤) . وقد وصفها ابن جبير؛ بعد سنوات قلائل فقال بانها « من احسن مدارس الدنيا ؛ وانها قصر من القصور الانيقة ، ينضب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ثم يتدفق الماء في ساقية مستطيلة الى ان يقع في صهريج كبير وسط الدار ؛ فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر »(١٠٥) .

وقام رجالاته بانشاء عدد اخر من المدارس كالمدرسة الريحانية المجاورة للمدرسة (النورية) والتي انشأها جمال الدين ريحان والي القلعة وخادم نور الدين سنة ٥٦٥هـ واوقف عليها اوقافا كثيرة(١٠٦) ؛ والمدرستان اللتان انشأهما الامير مجاهد الدين بزان بن مامين قبل سنة ٥٥٥هـ حيث توفي(١٠٧) . وقامت عصمت خاتون زوجة نور الدين ببناء مدرسة لاصحاب ابي حنيفة عرفت بالمدرسة الخاتونية ، او مدرسة خاتون(١٠٨) . وفي الزيارة التي قام بها ابن جبير لدمشق بعد وفاة نور الدين بعشر سنوات يحدثنا انه شاهد فيها نحو عشرين مدرسة(١٠٩) . واغلب الظن ان معظم هذه المدارس مما تم انشاوه خلال الحركة المدرسية التي شهدها عصر نور الدين (١١٠) .

ومدارس اخرى ، للمذاهب المختلفة ، بنيت في حمص وحماة وبعلبك ومنبج والرحبة والرها ونصيبين(١١١) ، ليس هذا فحسب؛بل ان نور الدين كان يسعى الى اقامة مدارسه حتى في تلك البلاد التي لاتخضع لحكمه ؛ وكان ينتهز الفرص لتحقيق خططه في هذا المجال .. فهو عندما دخل الموصل عام ٦٦٥هـ؛ لاقرار الامور فيها، اشار على صديقه الشيخ الزاهد عمر الملاء بابتياع خربة واسعة وسط البلدة او اقامة جامع كبير فيها تقام فيه الجمع والجماعات وتدرس المذاهب المختلفة ،وولى الرجل نفسه امر الاشراف عليه فانفق فيه اموالا كثيره قيل انها بلغت ستين الف دينار ، وقيل ثلاثمائة الف ، وتم انجاز البناء في اقل من ثلاث سنوات ، وقدم نور الدين لكي يفتتحه بنفسه ويصلي فيه ، وخصص قرية من قرى الموصل لكي تكون وقفاعليه(١١٢) . وهو عندما بعث قاضي قضاته : كمال الدين الشهرزوري ، رسولا الى الخليفة العباسي المستضيء بالله في بغداد عام ٥٦٨هـ في مهمة سياسية ، طلب منه ان يذكر الخليفة بذلك الاقطاع الذي كانت الخلافه العباسية قد كافات به ، اباه زنكي متمثلا بناحيتي درب هارون وصريفين من اعمال العراق الجنوبي ، فاستجاب الخليفة لطلبه ، وكان هدفه من وراء ذلك ان يلتمس ارضا ببغداد على شاطىء دجلة ويبني فيها مدرسة للشافعية ويقف عليها الناحيتين المذكوريتن ؛ لكنه توفي قبل البدء بمشروعه هذا(١١٣) .

× × ×

ولم يكن نور الدين في بدء هذا البحث ـ متميز او متعصبا الى مذهب من المذاهب لكي يسعى من خلال نشاطه المدرسي هذا الى تحقيق نصر جزئي

---

(١٠٠) بن شداد : دمشق ص ٢٤٥ ، النعيمي : الدارس ١\٢٢١ .

(١٠١) النعيمي : الدارس ١\٤٤٧ .

(١٠٢) ابن شداد : دمشق ص ١٢٣ ابن واصل : بني ايوب ١\٢٨٤ وانظر : النعمي : الدارس ١\٩٩ ـ ١٠١ .

(١٠٣) ابو شامة : الروضتين ١\٥٤٤ ـ ٥٤٥ ، سبط : مرآة ٨\٢٩٤ ، العماد : البرق ١٢٤ ـ ١٢٥ ابن شداد : دمشق ص ٢٤٠ ، ابن واصل : بني ايوب ١\٢٨٢ ، النعمي الدارس ١\٣٥٩ ، ٣٦١ .

(١٠٤) ابن واصل : بني ايوب ١\٢٨٢ وهوامشها ، النعيمي: الدارس ١\٦٠٧ ، سبط : مرآة سبط ٨\٢٩٤ .

(١٠٥) رحلة ص ٢٥٦ .

(١٠٦) ابن شداد : دمشق ص ٢٠٩ وهوامشها ، النعيمي : الدارس ١\٥٢٢ ـ ٥٢٣ .

(١٠٧) ابو شامة : الروضتين ١\١\٣٠٩ ، النعيمي الدارس ١\٤٥٢ .

(١٠٨) سبط : مرآة ٨\٢٨٥ ، ابن شداد : دمشق ص ٢٠٥، النعيمي : الدارس ١\٥٠٧ .

(١٠٩) رحلة ص ٢٥٦ .

(١١٠) عن مدارس دمشق ـ عموما ـ في عصر نور الدين انظر: (الملحق الرابع)
Elisseeff : Nur-Ad-din, pp. 919-930.

(١١١) ابن شداد : حلب ص ٩٨ ـ ٩٩ ، ابن خلكان : وفيات ٣\٥٢ ـ ٥٦ ، ٥\١٥٨ ، ابن واصل : بني ايوب ١\٢٨٢ ، ابن الاثير : الباهر ص ١٧٠ ، ابن طولون : قضاة دمشق ص ٤٧ ـ ٤٨ (الملحق السادس) .
Elisseeff. Nur-Ad-din, pp. 933-935.

(١١٢) سبط : مرآة ٨/٢١٠ ـ ٢١١ ، ابو شامة : الروضتين ١\٤٨٠ ، العماد : البرق ص ٩٨ ، ابن كثير : البداية ١٢\٢٦٣ .

(١١٣) العماد : البرق ص ١٢٩ ، ابن الاثير : الكامل ١١\ ٣٩٥ .

لمذهب دون مذهب ؛ والى تعزيز مواقع (فقه) مابمواجهة سائر المعطيات الفقهية ، كما يحدث في عصور التقليد والتيبس الفكري .. انه يطمح الى ماهو ابعد من هذا بكثير : العمل على مستوى العقيدة الاسلامية في افاقها الرحيبه الواسعة ، وشموليتها التي تتسع لكل فكر مبدع واجتهاد خلاق .. ان الرجل يطل على المسالة الفكرية من فوق ، ويسعى ان يكون الصراع الفكري ، لاقتالا وانشقاقا في صميم الذات الحضارية للامة ؛ ولكنه تاصيل لهذه الذات بمواجهة خصم صليبي كان يقف بالمرصاد متحفزا لتدميرها ، تماما كما يسعى استعمار اليوم الجديد وصهيونيته لتحقيقه .. وكفاح من جهة اخرى بمواجهة خرافات القرون الطويله في مجرى التاريخ الاسلامي نفسه .. وهو الاخطر والاهم .. ومن ثم فان قيادة جادة كقيادة نور الدين محمود كانت تتمكن بقدر كبير من القدرة على تجاوز الصراعات الجانبية والعقد التاريخية صوب ما هو اعم واشمل وابعد مدى ..

ولنمة حادثة من بين عديد من الحوادث ، تناقلها المؤرخون ، تحمل دلالتها الواضحة في هذا المجال : في اعقاب وفاة احد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب انقسم هؤلاء الى فئتين ، كل يريد مذهبا من المذاهب ويسعى الى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس .. وتطور الجدل الى فتنة كادت تقع بين الفريقين « فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء الى القلعة بحلب ؛ وخرج اليهم نائبه ، مجد الدين بن الدايه ، وقال لهم على لسانه : نحن ما اردناه ببناء المدارس الا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة واظهار الدين ، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق » . ثم اعلمهم ان نور الدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء الرجلين وتولية كل منهما احدى المدارس الشهيرة في حلب(١١٤) .

لقد حقق نور الدين التجاوز الصاحب ، وتمكن من مد بصره صوب الاشمل والابعد فبنى المدارس لكل المذاهب(١١٥) ؛ وحقق الاجواء الصالحة لكل الاتجاهات التي تعمل في اطار الفكر الاصيل ؛ وتعامل مع كل العلماء ايا كان المذهب الذي ينتمون اليه ، وصادق رجالا من اهل السنة والجماعة ومن الشيعة على السواء .. بل انه تعمد ــ كما يبدو ــ ان تشهد دولته مزيدا من التنوع الفكري والا تجمد مؤسساتها على نمط واحد .. فمن خلال التنوع الفقهي والتغاير الاجتهادي تتاصل الشخصية ويتدفق الابداع ..

---

(١١٤) الطباخ : تاريخ حلب ٦٨\٢ .

(١١٥) فضلا عما سبق ، يمكن الرجوع الى الجدولين ١ و ٢ الذين نشرهما Elisseeff في كتابه عن نور الدين Vol. 3, pp. 913-914
ويتضمنان احصاء للمدارس التي شهدتها المنطقة قبل نور الدين وفي عصره ، وفق تصنيفها الذهبي .

★

اهم المصادر

ابن الاثير :
عز الدين محمد (ت ٦٣٠هـ)
التاريخ الباهر ، تحقيق عبدالقادر طليمات ؛ دار الكتب ، القاهرة ــ ١٩٦٣م .
الكامل ، دار صادر ، بيروت ــ ١٩٦٦م .

ابن ابي اصيبعة :
موفق الدين احمد (ت ٦٦٨هـ)
عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق نزار رضا ، مكتبة الحياة ، بيروت ــ ١٩٦٥م

ابن جبير :
محمد بن احمد (ت ٦١٤هـ)
رحلة بن جبير ، دار صادر ، بيروت ــ ١٩٦٤م .

ابن الجوزي :
ابو الفرج عبدالرحمن (ت ٥٩٧هـ) .
المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ــ ١٣٥٨هـ

ابن خلكان :
شمس الدين احمد (ت ٦٨١هـ) .
وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ــ ١٩٦٨م .

سبط ابن الجوزي :
شمس الدين ابو المظفر (ت ٦٥٤هـ) .
مرآة الزمان ، دائرة المعارف ، حيدر آباد الدكن ــ ١٩٥١م .

ابو شامة :
شهاب الدين عبدالرحمن (ت ٦٦٥هـ) .
كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمي محمد احمد ، المؤسسة المصرية ، القاهرة ـ ١٩٦٢

ابن شداد :
عز الدين محمد (ت ٦٨٤هـ) .
الاعلاق الخطيرة (قسم حلب) ، تحقيق سوردبل ، المعهد الفرنسي ، دمشق ـ ١٩٥٣م .

الطباخ :
محمد راغب
اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، المطبعة العلمية ، حلب ـ ١٩٢٥م .

ابن طولون :
شمس الدين (ت ٩٥٣هـ) .
قضاة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ـ ١٩٥٦م .

ابن العديم :
كمال الدين عمر (ت ٦٦٠هـ)
زبدة الحلب ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي، دمشق ـ ١٩٥٤م .

العماد الاصفهاني :
سنا البرق الشامي ، اختصره البنداري (ت ٦٤٢هـ)، القسم الاول ، تحقيق رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ـ ١٩٧١م .

ابن قاضي شهبة :
بدر الدين (ت ٨٧٤هـ) .
الكواكب الدرية ، تحقيق محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ـ ١٩٧١م .

ابن القلانسي :
ابو يعلى حمزة (ت ٥٥٥هـ) .
ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمدروز، مطبعة البسوعيين، بيروت ـ ١٩٠٨م .

ابن كثير :
عماد الدين اسماعيل (ت ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ـ ١٩٣٢م

التميمي :
عبدالقادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ)
الدارس في انباء المدارس ، تحقيق جعفر الحسني ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ـ ١٩٤٨ ـ ١٩٥١

ابن واصل :
جمال الدين محمد (ت ٦٩٧هـ) .
مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ادارة احياء التراث القديم ، القاهرة ـ ١٩٥٣م .

Elisséeff: Nikita

Nur Ad-din : Nu Grand Prince Musulman De Syrie Au Temps Des Croisades.

Institut Français De Damas, Damas 1967.

WWW.ATTAWEEL.COM